الفصل الأول

- الجزائر من الفتح الإسلامى إلى الاحتلال الاستعمارى .
- العلاقات الجزائرية الفرنسية .
- الغزو الفرنسى فى وثيقة أمريكية .
- البعد الإسلامى فى جهاد الأمير عبد القادر .
- استمرار الجهاد بعد عبد القادر .

obeikandl.com

الجزائر من الفتح الإسلامى
إلى الإحتلال الاستعمارى

يرجع اسم دولة الجزائر الحالى « Algeric» إلى عام ١٨٣١م ، ولكن ولاية Algm الجزائر التى أسسها عروج وخير الدين بربروس ، كانت تحت النفوذ التركى حتى الغزو الفرنسى ، منذ النصف الأول من القرن السادس عشر[١] وقبل ذلك ، كانت تسمى المغرب الأوسط ولها تاريخ ذو شجون كما سنوضح فى هذه الدراسة .

ويمكن القول : إن أهل المغرب العربى دخلوا الإسلام فى القرن الأول الهجرى ، وكانت أول محاولة لعرض الرسالة عام ٢٣هـ على يد عبد الله بن أبى السرح (٢٧هـ – ٣٥هـ) ، ثم رافع بن خديج سنة ٤٥هـ ، ثم عقبة بن نافع من ٥٠هـ – ٥٥هـ ، ثم أبو المهاجر بن دينار من ٥٥هـ – ٦٢هـ الذى نجح فى ضم رجال قبائل البربر إليه وشاركوه فى فتوحاته بعد إسلامهم ، ثم مرة أخرى عقبة بن نافع الذى وصل إلى ساحل الأطلسى (٦٢ – ٦٤هـ) ، وبعده قام زهير بن قيس بتوطيد دعائم الحكم الإسلامى فى بلاد المغرب ثم حسان بن النعمان (٧٣هـ إلى ٨٢هـ) ، وعقب ذلك جاء موسى بن نصير فأكمل الفتح وثبت دعائمه (٨٦هـ) ، وهاجم الجزر المنتشرة فى البحر المتوسط مثل صقلية – سردينيا – جزر البليار ، ثم أعد جيشًا من البربر بقيادة طارق بن زياد البربرى فاجتازوا المضيق ووصلوا إلى أسبانيا ، وهزموا ملك القوط وأسسوا الحكم الإسلامى فى الأندلس ، الذى استمر من ٩١هـ – ٧١١م إلى ١٤٩٢م أى حوالى ثمانية قرون كاملة[٢] .

واستمر التقدم الإسلامى فى أوربا ، بفضل جهود المسلمين البربر ، سكان بلاد المغرب ، وغزو جنوب فرنسا سنة ١٠٢هـ ، وبلغوا نهر « الرون » واستولوا على مدينة

---

(١) شارل روبير اجيرون : تاريخ الجزائر المعاصرة . ترجمة عيسى عصفور منشورات عويدات ، بيروت باريس . الطبعة الأولى ١٩٨٢ ص ٩

(٢) محمد مورو : الجزائر تعود لمحمد المختار الإسلامى ١٩٩٢ ص ٥ ، ص٦

« بوردو » على مصب نهر الجارون إلى أن توقف ذلك الفتح عقب معركة بلاط الشهداء والذى استشهد فيها عبد الرحمن الغافقى سنة ١١٤هـ - ٧٣٢م[١] .

وهذا التقدم المذهل للإسلام وقدرته على أن يدك القلاع الصليبية ، وأن يصل إلى عقر دارها كان بفضل المسلمين البربر ، سكان بلاد المغرب الذين دخلوا الإسلام وأخلصوا له أيما إخلاص ، وطوعوا لسانهم للغته العربية ، رغم أن الإسلام لم يأت لتغيير الألسن بل لتغيير القلوب ، مما يدل على أن الإسلام أصبح كل هويتهم وتشكيلهم الوجدانى والإيمانى ، وهو ما سنراه لاحقًا عندما نرى فشل حملة فَرنسة سكان الجزائر والتى استمرت أكثر من مائة وثلاثين عامًا ، والمقاومة الشريفة التى أبداها الجزائريون فى مواجهة هذه الحملة فى الوقت الذى انقادوا فيه بسهولة إلى الإسلام ولغته وأصبحوا منذ إسلامهم من جنده المخلصين .

وإن كان الفتح الإسلامى لشمال أفريقية قد حقق الوحدة السياسية لهذه المنطقة لأول مرة فى تاريخها ، إلا أن الفوضى التى عصفت بالدولة الإسلامية منذ أواخر العهد الأموى ، عرضت هذه الوحدة للتمزق ، إذ لقيت الدعوات المناوئة للأمويين ،ومن بعدهم العباسيين ، كدعوات الشيعة والخوارج ترحيبًا ، ولاسيما فى المغربين الأوسط (الجزائر) ، والأقصى (المغرب) مما جعل العباسيين يوافقون على قيام دولة « حاجز » تتمتع بالاستقلال الذاتى هى دولة الأغالبة[٢] .

وهذا يدل على أن أهل بلاد المغرب يميلون إلى الثورة ويدعون إلى العودة إلى أصالة ونقاء الدين الإسلامى ، الذى حاولت عناصر كثيرة تشويهه ، فهم بذلك يكونون من جند الإسلام الأنقياء الأشداء لا من المتمردين على السلطة الإسلامية ، فالتمرد والثورة كان بسبب ابتعاد السلطة والنظام الحاكم آنذاك عن منابع الإسلام الصافية .

وبين القرن التاسع والقرن الثانى عشر الميلاديين تحققت وحدة شمال أفريقية من جديد على يد الموحدين ، وتعاقب فى المغربين الأدنى (تونس) والأقصى (المغرب) حكومات عديدة فى حين كان المغرب الأوسط (الجزائر) فى أغلب الأحيان مسرح صراع على النفوذ بين القوى السياسية الحاكمة فى القطرين المجاورين .

---

(١) المصدر السابق ص ٦

(٢) د. محمد خيرالدين فارس: تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثمانى إلى الاحتلال الفرنسى . دار الشرق . بيروت بدون تاريخ ص ٥

وعندما ضعف الموحدون منذ أوائل القرن الثالث عشر إثر هزيمتهم فى معركة لاس نافاس سنة ١٢١٢م ، بدأ المغربان الأدنى والأوسط (تونس والجزائر) يميلان نحو الاستقلال عن الموحدين لتنتهى بذلك الوحدة الثانية ، وقامت على أنقاضها فى منتصف القرن الثالث عشر ثلاث دول : الدولة الحفصية فى المغرب الأدنى (تونس) ، وبنو عبد الواد فى تلمسان فى المغرب الأوسط (الجزائر) ، وبنو مرين فى المغرب الأقصى . ودولة بنى عبد الواد أو الدولة الزيانية ، دولة بربرية ظهرت فى المغرب الأوسط فى أواخر النصف الأول من القرن الثانى عشر وعاشت ثلاثة قرون ونيف ١٢٣٥ - ١٥٥٤م[١] .

التدخل الأسبانى

وبالطبع لم ينس الصليبيون من الأسبان ثأرهم فقرروا التدخل فى شمال أفريقية واسموا ذلك « حرب الاسترداد » . وكانت وصية الملكة إيزابيل ... إنى أرجو الأميرة ابنتى (جين) ، والأمير زوجها (فيليب) وآمرهما بإطاعة وصايا أمنا المقدسة الكنيسة طاعة تامة ، وأن يكون حماتها والمدافعون عنها حسبما يقتضى واجبهما ، وألا يكفا عن متابعة فتح أفريقية ومحاربة الكفار فى سبيل الأمان ..[٢]

ولاشك أن الفوضى السياسية والصراع على الحكم بين الأسر الحاكمة أدى إلى تفكك بلاد المغرب ، مما كان عاملاً مشجعًا للمطامع الأسبانية ، ولذلك لم يكن من المستغرب أن يكتب سكرتير ملك أسبانيا عام ١٤٩٥م : « ... إن البلاد ، يقصد شمال أفريقية ، فى حالة يبدو وكأن الله يريد أن يمنحها لجلالتكم .. »

وتركز التدخل الأسبانى فى المغربين الأوسط (الجزائر) والأدنى (تونس) ، وذلك بعد معاهدة « توردى سيلاس » عام ١٤٩٤ ، التى عقدت بين أسبانيا والبرتغال برعاية البابا ، والتى خصصت لأسبانيا المناطق الواقعة شرق « بنون دوفيليز » (حجر باريس) المغربية[٣] .

ومما سبق يتضح لنا أن دوافع التدخل الأسبانى كانت دينية ، فهى وليدة الصراع مع المسلمين خلال حرب « الاسترداد » وتجاوبت مع دعوات البابا للحروب الصليبية فى

---

(١) المصدر السابق صفحات ٥ ، ٦ ، ٧

(٢) المصدر السابق ص ١٣

(٣) المصدر السابق ص ١٦

النصف الثانى للقرن الخامس عشر ، إثر سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م ووصول الأتراك إلى أسوار البندقية فى أواخر ذاك القرن . كما استاء الأسبان من لجوء ملك غرناطة أبى عبد الله وعدد من أعيان الأندلس إلى وهران ، وترحيب السلطان الزيانى محمد الثانى بهم ، وكان المهاجرون من أسبانيا يستصرخون إخوانهم من المسلمين ويقصدون عليهم الظلم والاضطهاد الذى حل بهم فى الأندلس مما دفع سكان موانئ شمال أفريقيا لشن حربا بحرية ضد السفن والموانى الأسبانية[1] .

وإن دل ذلك على شىء فإنما يدل على أن أهل الجزائر كانوا أهل نخوة وشهامة ولم يقدروا عواقب استقبال إخوانهم ، بل قاموا بالثأر لهم ، والانتقام من الأسبان وهو الأمر الذى هدد المصالح الأسبانية فى البحر المتوسط ، وكاد أن يقطع الاتصالات البحرية بين السواحل الأسبانية ونظيرتها الإيطالية .

ولذلك قررت إيزابيل تكليف جواسيسها بمهمة استطلاعه فى تلمسان استعدادا للحرب وبالفعل حصلا على المعلومات الكافية لغزو تلمسان إلا أن موتها عام ١٥٠٤م أدى إلى تأجيل الحملة ،إلا أنها تقررت من جديد عام ١٥٠٦م وقاومها الجزائريون مقاومة عنيفة بدون جدوى ، واضطرت حامية الميناء للاستسلام وانسحب السكان إلى الداخل إلا أن النشاط الأسبانى توقف بسبب خلافات بين فرديناند وصهره فيليب ، وبوفاة الأخير استأنف الأسبان نشاطهم عام ١٥٠٨ واستولوا على حجر باريس (بنون دوفيليز) ، على سواحل المغرب الأقصى ، ثم هاجم وهران عام ١٥٠٩ ، ونجح فى اقتحام أسوارها بسهولة لخيانة القائدين المسئولين عن حراسة وهران « .. وأحدهما منافق يظاهر بالإسلام ، والآخر يهودى اسمه أشطورا .. » وقام الأسبان بأعمال وحشية يندى لها الجبين الإنسانى ، أشرف عليها الكاردينال كزيمنيس بنفسه فقتل ٤ آلاف وأسر ٨ آلاف وحول مسجدين إلى كنيستين .

« .. ويومئذ انطلقت ألسنة العلماء ، الشعراء بتوجيه الصريخ إلى الولاة والرؤساء وأمراء القبائل لإنقاذ وهران .. »[2] .

ولكن ذهبت الصيحات أدراج الرياح ، واستولى الأسبان فيما بعد عام ١٥١٠ على بجاية ونهبوها وهدموا منارة قصر اللؤلؤ ، وحطموا قصر الكوكب والمسجد

---

(١) المصدر السابق ص ١٧

(٢) المصدر السابق ص ٢٠

الجامع الأعظم . كما استولوا فى نفس العام على طرابلس ، وسارع ولاة عدد من الموانى إلى قبول الخضوع للسيادة الأسبانية ودفع الجزية ، مثل تنيس ، وديلبس ، وشرشال ، ومستفانم ، وتوجه فى العام التالى وفد من مدينة الجزائر برئاسة « سالم التومى » إلى بجاية مركز قيادة « بدور نافارو » ، وأبرم معه صلحًا تعهد فيه بالخضوع للنفوذ الأسبانى والإفراج عن جميع الأسرى النصارى ، ثم توجه الوفد عام ١٥١٢م إلى أسبانيا ، وقدم ولاءه إلى الملك فرديناند ، وقبل الوفد تسليم إحدى الجزر ، وهى عبارة عن صخرة مواجهة لميناء الجزائر على بعد ٣٠٠ متر ، أقام عليها الأسبان حصنًا قويًا مدعومًا بالمدفعية ، مما يعنى وجود شوكة فى جنب الجزائر[1] ، ولم يمنع التوسع الأسبانى إلا ظهور قوة إسلامية جديدة هى الدولة العثمانية والتى أعطى ظهورها دفعة قوية لسكان الجزائر للمقاومة .

عروج وخير الدين بربروسا

وجاء التدخل العثمانى نتيجة لمبادرة اشترك فيها أهل مدينة الجزائر والأخوان عروج وخير الدين بربروسا ، كرد فعل للتدخل الأسبانى .

وكان نشاط عروج وإخوته الثلاثة خير الدين وإسحاق وإلياس موجهًا ضد السفن المسيحية وفى خدمة الإسلام والمسلمين .

وبغض النظر عن جنسهم ، فهم كانوا من المسلمين اتفقوا مع السلطان الحفصى محمد ابن الحسين (١٤٩٤ - ١٢٥٦م) على أن يمنحهم جزيرة « جربه » ليتخذوها قاعدة لأسطولهم ، مقابل مشاركة السلطان بخمس الغنائم ، وحصل عروج على سمعة عظيمة لدوره فى نقل الكثير من مسلمى الأندلس إلى شمال أفريقيا ، فكثر أتباعه وازداد أسطوله إلى حوالى ١٢ سفينة سنة ١٥١٠ بفضل الغنائم التى حصل عليها من مهاجمة السفن المسيحية ، وفى عام ١٥١٢ استنجد به حاكم بجاية وعلماؤها وأعيانها ليساعدهم على تحريرها من الأسبان ، وفشل عروج فى ذلك وقطعت ذراعه وبدلاً منها احتل جيجل واتخذها قاعدة له ، بدلاً من جربة بسبب الخلاف مع السلطان الحفصى الذى امتنع عن إمداد عروج البارود أثناء حصاره لبجاية .

---

(١) المصدر السابق ص ٢١

وسارع أهل مدينة الجزائر بواسطة رئيسهم سالم التومى إلى الاستنجاد بعروج ليحررهم من القلعة المواجهة للمدينة ، فأسرع إليهم ولكنه فشل فى احتلال القلعة المنيعة واحتل فى طريقه شرشال ، وبدأ أهل الجزائر ينظرون إليه كمحتل ، وحاك سالم التومى المؤامرات ضده إلا أن عروج سبق المتآمرين وقتل سالم التومى ، ونادى جند عروج به سلطانًا ، ونجح بالاحتفاظ بالجزائر رغم مؤامرات أولاد سالم التومى الذين لجئوا إلى الأسبان ، ونجح فى إحباط محاولة أسبانية بقيادة « دييجوا دوفيرا » عام ١٥١٦م ، وانتهت بكارثة ، فقد فتك عروج بأفرادها ، وتوسع بعد توطيد حكمه فى مدينة الجزائر واستولى على مليانه ، والمدية ، وتنيس ، وأوكل لأخيه خير الدين أراضى المشرق وقوة ديليس ، واحتفظ لنفسه بمدينة الجزائر ، ومناطق الغرب ، ونجح فى الاستيلاء على تلمسان عام ١٥١٧ لإنقاذها من النفوذ الأسبانى ، وتضخم جيشه بالمتطوعين وتوغل عروج فى المغرب الشرقى حتى « وجده » وأخضع بنى يزناس ، وشرع فى التباحث مع الوطاسيين فى فاس ، للتعاون معهم ضد الأسبان الذين شعروا بالخطر ، فوجهوا حملة بقيادة « دون مارتن » ، نجحت فى قطع الطريق بين تلمسان والجزائر وقتلت إسحاق شقيق عروج ، وثم الاستعانة بحاكم وهران الأسبانى ، للتوجه بحملة نحو تلمسان ، يساعده جماعة من أنصار الزيانيين وتم محاصرة عروج فى تلمسان ، وظل يقاوم مؤملاً بنجدة من أهالى فاس ، إلا أن أهالى تلمسان ثاروا عليه مما أدى إلى هروبه ولكن الأسبان لحقوا به وحاصروه وبعد معركة ضارية حارب فيها عروج كالأسد قتل مع جميع أنصاره عام ١٥١٨م وكان يبلغ من العمر أربعة وأربعين عامًا ، وعمومًا ومهما يقال عن قسوة عروج فى الجزائر وتلمسان إلا أنه نجح فى توجيه ضربة للنفوذ الأسبانى وإضعافه[1] .

الاستعانة بالدولة العثمانية

وبعد استشهاد عروج بدأ دور أخيه خير الدين والذى يطلق عليه أبن أبى الضياف بـ « خير الدين والدنيا » ، فلم يكن مجرد مغامر أو قرصان شهير بل كان مؤسس دولة ، ومن أبرز شخصيات التاريخ العثمانى ، فبعد مقتل عروج أدرك أن عليه الاعتماد على قوة الدولة العثمانية ليحصل على القوة والمال والهيبة مما يسمح له بالسيطرة على المغرب الأوسط (الجزائر) والتغلب على الأسبان ، فقرر الاستعانة بالعثمانيين ، وقبل سفره إلى

(١) المصدر السابق ص ٢٣ ، ص ٢٦ ، ص ٢٧

السلطنة العثمانية لطلب المعونة ، جمع العلماء وأعيان البلاد لإخبارهم ، فمنعوه وتضرعوا إليه ألا يخرج من بينهم حتى تضع الحرب أوزارها ، وقال له العلماء : يجب عليك المقام بهذه البلدة الإسلامية لحمايتها ، ولا رخصة لك فى تركها نهبة للمفترس ، فأجابهم بأنه بقى منفردًا بلا معين من إخوته ، وقد رأيتم ما فعله بنا صاحب تلمسان من بنى زيان ، واستعانته علينا بغير أهل ملتنا ، حتى كفانا الله أمره ، وصاحب تونس الحفصى لا رأى له فى نصرنا وإعانتنا ، وأسلمنا للعدو بمنع البارود ، لولا لطف الله ، فالرأى أن تصل أيدينا بالقوة الإسلامية ، وهو السلطان سليم خان ، ونعتمد عليه فى حماية هذه المدينة ، ولا يكون ذلك إلا ببيعة والدخول فى طاعته ، بالدعاء له فى الخطب على المنابر ، وضرب السكة باسمه لنتفيأ ظل حمايته ، فاستكانوا لذلك ورضوا به ، وأعلنوا بالدعاء له على المنابر وكتبوا بذلك للحضرة السلطانية ، وبعثوا له من السكة المضروبة باسمه فى الجزائر ، وحمل خير الدين له هدية فاخرة[1] .

واقتناع العلماء والوجهاء برأى خير الدين يدل على تمكن الإسلام من الشخصية الجزائرية التى لاتريد أن تخضع إلالإسلام أينما كان، حتى ولوكانت الخلافة أوالدولة الإسلامية التى ستتبعها تبعد عنها آلاف الأميال ، فالخضوع لتلك السلطة الروحية هو الطريق الوحيد للحفاظ على الشخصية الجزائرية الإسلامية فى مواجهة الإخضاع الصليبى الأسبانى .

وقد وافق السلطان العثمانى على الطلب ، ومنح خير الدين لقب « بكلربك » وهو أعظم ألقاب السلطنة العثمانية ، وأرسل إليه قوة من ألفى انكشارى مزودين بالمدفعية ، وخوله حق تجنيد المتطوعين ، وبفضل هذه القوة نجح فى إلحاق هزيمة قاسية بحملة أسبانية سنة ١٥١٩م إلا أنه واجه خيانة من قبل الجيش الحفصى ونجح خير الدين فى الحصول على تأييد رجال القبائل الصغرى بتحالفه مع زعيم بنى عباس عبد العزيز ، الذى ساعده ضد ابن القاضى ، فهاجم الجزائر سنة ١٥٢٥ وقمع ثورات شرشال وتنس وقسنطينة ، واستولى فى صيف ١٥٢٩م على القلعة الأسبانية مقابل مدينة الجزائر ، مما أدى إلى إعلان سلطان تلمسان إلى رفض التبعية الأسبانية ،

---

(١) ابن أبى الضياف : اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان . تونس ١٩٦٣ . الجزء الأول ص ١٠

وامتنع عن تقديم الجزية ، وأقلق نجاح خير الدين الأسبان ، فوجهوا له حملة عسكرية أصيبت بالفشل عام ١٥٣١م ، وفى صيف ١٥٣٤م دخل تونس وأعلن انتهاء الحكم الحفصى ، وتبعية تونس للخلافة العثمانية إلا أنه تم استدعاؤه إلى استنبول ليتولى مهام قبطان باشا أميرال » الأسطول العثمانى عام ١٥٣٦م وترك حسن أغا خليفة له . وفى سنة ١٥٤١م حاول الأسبان احتلال الجزائر من جديد ، ولكنهم فشلوا فشلاً ذريعًا ، وكانت هذه الحملة ضربة خطيرة للنفوذ الأسبانى ، وأصبحت الجزائر بعدها فى نظر أوربا المدينة التى لا تقهر[1] .

وأعطى العثمانيون اسم الجزائر الحديث « للمغرب الأوسط » بعد أن كان اسما لمدينة الجزائر فقط ، كما قاموا برسم الحدود السياسية الحالية فى شمال أفريقيا ووضعوا حدود الجزائر الحالية ،التى لم تتغير تقريبًا منذ ذلك الوقت . واستمر الحكم العثمانى فى الجزائر منذ عام ١٥١٨م حتى ١٨٣٠م ومر بأربع مراحل هى « البكلريكوات » ، وعهد « الباشوات » ، ثم عهد « الأغوات » ، وهو عهد تسلط الجيش على الحكم ، ويمثل أحلك فترة فى تاريخ الحكم العثمانى فى الجزائر ، ثم عهد « الدايات » . ولم تكن سلطة الأتراك تشمل كل القبائل فى الجزائر ، فهناك قبائل قوية ، أو اتحاد قبائل كانت تحتفظ بقدر من الاستقلال الذاتى ، وعمومًا لم تكن السلطة التركية الفعلية تشمل سوى ١/٦ الجزائر ، وحاول الأتراك كسب العناصر الدينية ذات النفوذ الكبير فى الجزائر حيث كان أكثر من ثلثى الجزائر تحت إشراف المرابطين المباشر .

وبالإضافة إلى حملات أسبانيا الصليبية تعرضت الجزائر لحملات برتغالية وإيطالية وأمريكية وفرنسية ، ولكنها فشلت أمام تمسك أهل الجزائر بدينيهم والدفاع عنه وعن وطنهم .

---

(١) د . محمد خيرالدين فارس . مصدر سبق ذكره ص ٣٣ - ص ٣٧

العلاقات الجزائرية الفرنسية

تميز القرن السادس عشر بالتعاون التركي الجزائري الفرنسي في مجال القرصنة . وأدى الأسطول الجزائري ، بصفة خاصة خدمات جليلة لفرنسا إبان صراعها المرير ضد إمبراطورية « شارلكان » . ولكن استقلال الجزائر الفعلي عن الدولة العثمانية حرر الجزائر من الإرتباط بالسياسة العثمانية ، وأطلق يدها في البحر المتوسط مما أدى إلى تكرار الصدام بين السفن الجزائرية والفرنسية ، وهو الأمر الذي نتج عنه اندلاع حروب بينهما ، وكذلك اتصالات ديبلوماسية .

والعلاقات التجارية بين الجزائر وفرنسا بدأت منذ العصور الوسطى ، وقبل أن تتوحد فرنسا في ظل التاج الملكي ، وكان ذلك بواسطة مدن الجنوب الفرنسي وخاصة « مونبلييه » و « آرل » ، « ومرسيليا » حيث كان يأتي المسلمون والمغاربة والمسيحيون للتجارة ، وكانت الموانئ المفتوحة لتجار فرنسا الجنوبية هي : وهران وتنيس وبجاية ، والجزائر ، ولكن حرب المائة سنة في فرنسا أضعفت هذا النشاط التجاري ، وسجل دخول الجزائر في إطار الدولة العثمانية بداية عهد جديد ، حيث قام تعاون فرنسي تركي سنة ١٥٣٥م ، تلاه تعاون فرنسي جزائري ، استمر في عهد البكلر بكوات ، وحصلت فرنسا خلاله على امتيازات خاصة على الشواطئ الجزائرية[1] وتأثرت العلاقات الفرنسية الجزائرية بسبب تفسير الفرنسيين لكلمة Bastion بمعنى حصن لا مستودع ، وهي الكلمة التي وردت في امتياز لشركة فرنسية لإقامة مستودع كبير للتجارة ، حيث رغبوا في تحويله إلى قلعة لحماية تجارتهم من غارات القبائل . وتحول الباسنيون إلى قلعة بالفعل ، مما أدى إلى قيام الحكومة الجزائرية بإصدار أوامر لتدميره سنة ١٦٠٤م ، وبدأت السفن الجزائرية في مهاجمة السفن الفرنسية ، وألحقت بتجارة فرنسا أضرارًا فادحة ، وفي سنة ١٦٢٠م قرر تجار مرسيليا تسوية الموضوع ، ولكن تعقد الأمر بسبب قيام قرصان جزائري بقتل بحارة إحدى السفن المرسيلية الصغيرة ، مما أدى إلى مهاجمة أهالي مرسيليا

(١) المصدر السابق ص ١١٨ – ص ١٢١

الفندق الذى يقيم فيه الوفد الجزائرى ، وتم قتلهم وعاودت السفن الجزائرية مهاجمة السفن الفرنسية ، واستولى الجزائريون على أكثر من ٩٣٦ سفينة ، ولم تعد السفن الفرنسية تجرؤ على مغادرة موانئ الجنوب[١] .

فى عام ١٦٢٨م تم توقيع صلح فرنسى جزائرى ، فى اجتماع رسمى يمنح الإمتيازات السابقة لفرنسا مقابل حصول الجزائر على ١٦ ألف ليرة للجند و ١٠ آلاف ليرة للخزينة ، وتم إعادة بناء الباستيون كمركز عسكرى ، وهو الأمر الذى كانت تهدف فرنسا من ورائه إقامة قاعدة تجسس فيه .

وظلت قضية الباستيون سببًا لإثارة الخلافات وتحقيق المكاسب .

فى سنة ١٦٦٤م قاد الأميرال الفرنسى « دى بوفور » حملة على « جيجل » إلا أنه انسحب تاركًا ١٤٠٠ قتيل ومئات المدافع وأججت هذه الحملة روح العداء بين الدولتين .

وفى سنة ١٦٦٥م قاد « دى بوفور » حملة ثانية لتغطية الفشل وفى العام التالى اتفق الجانبان على تسوية المشاكل ، والعودة إلى الاتفاق واستئناف الباستيون لنشاطه مرجحين القناصل الفرنسيين على غيرهم[٢] .

فى عام ١٦٨٢م وجه « لويس الرابع عشر » حملة بحرية كبيرة للجزائر وأمرها بتدمير الجزائر عن بكرة أبيها ، ولكن الحملة لم تحقق أهدافها واستؤنف القصف عام ١٦٨٣م إلا أن المقاومة الجزائرية نجحت فى مواجهة الفرنسيين ، وتم قتل القنصل الفرنسى « لوفاشيه » وعشرين آخرين ، ونتج عن القصف الفرنسى تدمير مائة منزل ومقتل ألف جزائرى ، وطلبت فرنسا السلام وتم الصلح سنة ١٦٨٤م إلا أن لويس نكث بعهده ، ووجه حملة فرنسية أخرى عام ١٦٨٨م لضرب الجزائر بأكثر من عشرة آلاف قنبلة مما أدى إلى إصابة كل بيت فى الجزائر ، وفقد أهلها معظم ممتلكاتهم وأقاموا خارج المدينة ، ورغم ذلك لم تخضع الجزائر لفرنسا التى وقعت صلحًا آخر سنة ١٦٨٩[٣] وساد هدوء نسبى فى العلاقات الفرنسية الجزائرية خلال القرن الثامن عشر ، ومالت السياسة الفرنسية إلى الإستماع لنصائح قناصلها ، وبسبب هذه السياسة الحكيمة تحسنت

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٣ - ص ١٢٥

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق ص ١٣٠ ، ص ١٣١ ، ص ١٣٢

العلاقات وازدهرت التجارة الفرنسية ويرى « هاردى » أنه يمكن اعتبار احتلال الجزائر فكرة نابليونية ، وأن تحطيم الجزائر كان جزءا من مشاريع نابليون فى المتوسط المرتبطة بمشروعه فى الوصول إلى الهند عبر مصر وإيران ، وأن هذه الفكرة حالت فى خاطره مرتين ١٨٠٢م و ١٨٠٨م .

ففى سنة ١٨٠٧م منح الداى المراكز الفرنسية للإنجليز مقابل عشرة آلاف جنيه وعجز نابليون عن فعل شيء ، إلا أن الحكومة الفرنسية اتخذت قرارها النهائى باحتلال الجزائر بشكل نهائى على ١٨٣٠ ، وأبلغت الدول الأوربية قرارها بإرسال مذكرة مؤرخة فى ١٨٣٠/٢/٤ ، وجاء بالمذكرة أن فرنسا قررت بنفسها إنهاء قضية الجزائر ، معتبرة نفسها مندوبة العالم المتمدن ، وحددت المذكرة غرض المشروع الفرنسى : القضاء على الاسترقاق والقرصنة والإتاوات على طول الشاطئ الأفريقى ، تأمين سلامة الملاحة فى المتوسط وجعل شاطئ المتوسط الجنوبى شاطئ إنتاج وحضارة وملتقى لجميع الأمم[1] ومما سبق يتضح أن الجزائر كانت هدفًا لحملات صليبية متعددة استمرت مئات السنين ،وكانت هدفًا حيويًا لفرنسا ، التى لم تلتزم بأى اتفاقية مع الجزائر وأن احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠ لم يكن سوى الهدف النهائى للصليبية العالمية والدليل على ذلك أنه فى سنة الاحتلال كان بمدينة الجزائر مائة وستة مساجد أصبح عددها عند التحرير ثمانية مساجد فقط ، كما تم تحويل مسجد « كتشاوه » أجمل مساجد المدينة إلى كنيسة بعد مذبحة دامية فى ١٨ ديسمبر ١٨٣٢م ، وحدث ذلك فى معظم مدن الجزائر .

ومن الأدلة الأخرى على صليبية الاحتلال الفرنسى للجزائر ، قول « كليرمون دى تونير » وزير الحربية الفرنسى سنة ١٨٢٨ وكان ذلك فى عهد شارل العاشر : « لقد أرادت العناية الإلهية أن يقوم جلالتكم – يقصد شارل العاشر – بتأديب أعداء المسيحية – يقصد الجزائر – ولعله لم يكن من باب الصدفة أن يدعى ابن لويس التقى لكى ينتقم للدين والإنسانية ، وربما يسعدنا الحظ بهذه المناسبة لنشر المدنية بين السكان الأصليين وندخلهم فى النصرانية ،وعندما أقام « بورمون » قائد الحملة صلاة الشكر فى فناء القصبة بمناسبة الانتصار ، بحث بوصف لهذا الاحتفال قال فى نهايته : « مولاى ، لقد فتحت بهذا العمل بابًا للمسيحية على شاطئ أفريقيا ورجاؤنا أن يكون هذا العمل بداية لازدهار

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٩ .

الحضارة التى اندثرت فى تلك البلاد » ووصف المؤرخ الفرنسى « ادوارد دريو » الحملة على الجزائر « بأنه كان أول أسفين دق فى ظهر الإسلام » ، وبرر رئيس وزراء فرنسا بولينياك حملته فى المنشور الذى تم توزيعه على البلاد الأوربية بقولة « إن الوضع الجديد الذى يمكن إقامته فى الجزائر هو لخير المسيحية جمعاء »[1] .

وبذلك يكون الاحتلال الفرنسى للجزائر إحدى حلقات الحروب الصليبية وهو الأمر الذى يؤدى حتمًا إلى إشعال الحماسة الدينية داخل البلاد المستهدفة ويكون الجهاد من أجل الدين أولاً ، ثم الوطن ثانيا ، واستمرار تلك الحرب لأكثر من ١٣٠ سنة يضيف بعدًا تاريخيًا عميقا للمشكلة بجانب بعدها العقيدى والوطنى ، وهو الأمر الذى يؤدى فى النهاية إلى شخصية تحكمها القيم الدينية والأبعاد التاريخية ولذلك فإن الشعب الجزائرى يتسم بصفات وسمات مختلفة عن باقى الشعوب العربية ، حيث تختلط فيه العناصر الدينية والقومية والوطنية ، ولا يمكن فصلها من دماء هذا الشعب ، ولذلك كانت الخطيئة الكبرى للثورة الجزائرية بعد نجاحها ، قيامها بإبعاد الدين عن النظام السياسى الجديد ، وهو الأمر الذى أتاح للحركة الإسلامية فى الجزائر التمكن من الشارع الجزائرى ، لأنها تفاعلت مع عناصره الوجدانية والعقيدية والتاريخية والوطنية والقومية ، وهى العناصر التى تغفلها دائمًا التحليلات الغربية فى معرض الوقوف على أسباب انتعاش الحركة الإسلامية فى الجزائر والتى تردها دائمًا لأسباب اقتصادية .

---

(١) محمد مورو مصدر سبق ذكره ص ٢٤

الغزو الفرنسى فى وثيقة أمريكية

وهناك شهادة أمريكية حول الغزو الفرنسى للجزائر ، قام بتحقيقها وترجمتها الدكتور منصور أحمد بوخمسين ، تكشف خطوات وملابسات ذلك الاحتلال ، وتؤكد صليبيته ، والوثيقة الأمريكية عبارة عن مذكرة مطولة ، بعث بها قنصل الولايات المتحدة الأمريكية فى مدينة الجزائر « هنرى لى » إلى وزير خارجية الولايات المتحدة « مارتن فان بيرن » بتاريخ ١٥/٧/١٨٣٠م أى بعد عشرة أيام من احتلال الجزائر ، وتم استلامها بتاريخ ٣/١٠/١٨٣٠م ومكتوبة على سبع ورقات كبيرة من وجهين ، وتحتوى كل صفحة على ٣٣ سطرًا تقريبًا[١] ويؤكد كاتب الوثيقة أن الجيش الجزائرى المدافع ، كان فى كافة المعارك التى خاضها ضد الفرنسيين ، أقل عددًا من الجيش الفرنسى المقابل له ، وهى معلومة مخالفة تمامًا لما هو سائد فى المصادر والمراجع الفرنسية التى قدرت القوات الفرنسية بـ ٣٧,٦٠٠ مقاتل والقوات الجزائرية بخمسين ألف مقاتل . وأكدت الوثيقة عدم فعالية البحرية الفرنسية[٢]

وأن ما يثير الدهشة حقًا فى هذه الوثيقة هو إدراك كاتبها لخطورة ما أقدم عليه الفرنسيون ، وغفله الآخرون بهذا الخصوص ، إذ بينما اعتبر الفرنسيون استيلاءهم على مدينة الجزائر ، وكأنه احتلال لكافة أنحاء الإيالة ، نجد « لى » يصرح أن سلطة الفرنسيين لن تتجاوز مدى بنادقهم ، وفى هذا التصريح دليل واضح لمدى إدراك « لى » لطبيعة الحكم فى الجزائر ، ومعرفة بأحوالها السياسية فى ذلك الوقت فهو يدرك أن سلطة حكومة الداى لم تكن نابعة من التسلط الفعلى أو القسرى لتلك الحكومة على المجموعات الجزائرية المختلفة ، بل كانت تلك السلطة مستمدة من قناعة دينية لدى الجزائريين ، واعتراف منهم بشرعية الحكومة العثمانية ، وهو ما أسماه بسلطان الفتح القديم ، وذلك على عكس الفرنسيين الذين نظروا إلى السلطة العثمانية كسلطة استعمارية لن يجدوا

---

(١) دكتور منصور أحمد بوخمسين . الغزو الفرنسى للجزائر فى وثيقة أمريكية معاصرة . حوليات كلية الآداب – جامعة الكويت – الحولية التاسعة . الرسالة الخامسة والخمسون ١٩٨٨/١٩٨٧ ص ١٣ .

(٢) المصدر السابق ص ١٨ ، ص ٢٠ .

صعوبة فى استبدالها ، والحلول محلها ، وهو لذلك يتنبأ بأن احتلال بقية الجزائر ستكون مسألة مختلفة تمامًا عن احتلال المدينة ، ولقد أثبتت الأحداث صحة وجهة نظره[1]

وتقرر الوثيقة أن وحشية الفرنسيين تجاوزت وحشية البرابرة ، فهم يمارسون دون اعتراض من رؤسائهم أعمال السلب والنهب وإتلاف الممتلكات ، وإذهاق الأرواح فى كافة البيوت العائدة للعرب واليهود ، وهى حقيقة أغفل ذكرها معظم مؤرخى الحملة الفرنسية .

ولعل أغرب ما فى الوثيقة هو تصرف الفرنسيين تجاه القناصل الأجانب وبيوتهم وممتلكاتهم ، فقناصل أمريكا والدنمرك والسويد ونابلى ، يقررون حياد بلادهم فى النزاع القائم بين فرنسا والجزائر ، ويقوم هؤلاء بالتجمع فى بيت محصن تحت حماية العلم الأمريكى ، وقيادة القائم بأعمال القنصلية الأمريكية ، وتوافق الحكومة الجزائرية على ذلك ، وتحترم رغبة هؤلاء ، وتحافظ على المكان الذى اختاروه رغم كونه مركزًا استراتيجيًا ، ولكن ما إن يظهر الفرنسيون حتى يضعوا أيديهم على ذلك البيت المحمى ، احتلوه بجنودهم واستخدموه كنقطة مراقبة لهم ، وسخروا أهله لخدمتهم وإطعامهم والترفيه عنهم ، دون أن يأبهوا بأى احتجاج بل وبينما كان هؤلاء القناصل وزوجاتهم يقدمون للضباط الخراف والمرطبات ويسهرون على راحتهم قام جنود هؤلاء الضباط باقتحام بيوت القناصل ونهبها وقتل بعض من كانوا فيها .[2]

ومما يبعث على الدهشة فى كل هذا ، هو أن فرنسا كانت قد شنت حملتها على الجزائر ، وقامت بإحتلالها بحجة أن داى الجزائر ، قد أهان قنصلها لديه ، عندما قام بضربه بمنشة ذباب أو مروحة كان يحملها الداى !! وأننا نجد فى الوثيقة ليس فقط إهانة لقنصل واحد بمروحة بل إهانات واعتداءات متكررة على قناصل أربع دول ، دون أن ينتج عن ذلك حتى ولا احتجاج رسمى بسيط من أى بلد أوروبى أو الولايات المتحدة الأمريكية التى نرى قنصلها يشكو لوزير خارجيته مر الشكوى من عنف وهمجية الفرنسيين .

---

(١) المصدر السابق ص ٢١ ، ص ٢٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٣ .

وأهم ما فى الوثيقة فى نظرى هى مشاعر القنصل الأمريكى والتى لم يستطع إخفاء تعصبه المسيحى ، ويقول بالنص كما ورد فى ترجمة د . منصور أحمد بوخمسين : « على الرغم من أنى لن أستطع مقاومة التعاطف مع الجانب المتعرض للغزو فى هذه الحرب ، ولم أقدر إلا أن أشفق على المقاومة الباسلة ولكن غير الفعالة التى قام بها هؤلاء بشجاعة وبراعة جنرالات الجيش الفرنسى وقائده ، إلا أنى لا أذكر أبدًا أننى شعرت فى حياتى بمثل هذا الفخر والزهو بالانتصار الذى غامرنى عندما وقع بصرى للمرة الأولى من شرفة موقعنا ، على الفرق المسيحية المنتصرة وهى تدفع أمامها حشود البرابرة ، وتتوج بوجودها المرتفعات المطلة على الجزائر ، بينما راياتها المألوفة تخفق بكبرياء أمام الريح وأسلحتهم المنتصرة تلمع تحت شمس الصباح » .[1]

وهناك ملاحظة هامة نرصدها من خلال ترجمة الوثيقة ، وهى استخدام صفة ، المسيحى لكل ما هو فرنسى ، فيقول القنصل الأمريكى على سبيل المثال : « لقد دعمت طلبى بالإشارة إلى أن موقعنا المحايد قد حافظ عليه البرابرة بكل دقة ، وبأنى أرجو ألا تدعونا إجراءات الجنرال الفرنسى لأن نأسف على اقتراب جيش مسيحى منا » . وفى مكان آخر من الوثيقة يقول : « ولما لم يكن باستطاعتنا إزالة تلك القوة الفرنسية ، أو رفض القيام بواجبات الضيافة تجاه ضباطها ، بقيت مائدتنا وشرفتنا فى ازدحام دائم ، فالأولى كانت المائدة المسيحية الوحيدة داخل خطوطهم ، والثانية كانت أكثر المناطق إشرافًا فى المنطقة المحيطة بالجزائر » . وهذه الوثيقة تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك على أن الغزو الفرنسى للجزائر كان بدافع صليبى مما يجعل المقاومة الجزائرية تأخذ شكل المقاومة للدينية أيضًا ، وهو ما سنراه لا حقًا .

ولم تخف الوثيقة الأطماع الفرنسية ، والتى كانت هدفًا رئيسيًا للحملة المغلقة برفع رايات المسيح ، فلقد قام الجنرال بورمونت بالاستيلاء على خزينة الجزائر العامة الذائعة الصيت ، والحاوية على مقدار من الذهب والفضة والجواهر تقدر قيمته بمبلغ يتراوح بين مائة ومائة وخمسين مليون دولار – على حد قول الوثيقة – وهى أكثر بكثير من التكلفة المحتملة لعملية الغزو ، بالإضافة إلى ما تم الاستيلاء عليه من المؤن والاعتدة الحربية – الحاوية على ألفى قطعة مدفع منها ألف مدفع نحاس ، وكمية من أخشاب بناء السفن ، وفرقاطة تحت الإنشاء وعدة سفن أخرى .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٧ .

وهكذا نرى اختلاط الأهداف الدينية والاقتصادية والسياسية والعسكرية والتاريخية فى عملية احتلال الجزائر ، مما جعل المقاومة العسكرية الجزائرية تستمر من ١٨٣٠ إلى ١٩٠٤ أى حوالى ٧٤ عامًا وإن كانت تخبو أحيانًا بفعل الضغوط العسكرية الفرنسية إلا أنها سرعان ما تشتعل بفضل العامل الدينى الذى كان المحرك الوحيد لكل تلك الثورات والانتفاضات ، الأمر الذى أصبح على مرور الوقت جزءا أصيلاً من الموروث التاريخى للشخصية الجزائرية بالإضافة إلى كونه عنصر عقيدى أصلا مما يجعله العامل الحاسم فى اختيارات الجزائريين طوال تاريخهم . حتى الآن ، فهى تحكم على الصعيد العسكرى كما سنرى فى المقاومة وحرب التحرير ، وعلى الصعيد السياسى والاجتماعى كما اتضح ذلك فى المحافظة على الشخصية الجزائرية من خلال جمعية العلماء التى قاومت التنصير وحفظت التعريب .

البعد الإسلامى
فى جهاد الأمير عبد القادر

بعد اقتحام الجيش الفرنسى لمدينة الجزائر يوم ٥ يوليو ١٨٣٠ وبعض النقاط الساحلية انقسمت المقاومة الجزائرية إلى شقين : الأول سياسى ، والثانى جهادى ، الأول فشل بشكل كبير لأنه اعتمد على الشكوى والتذمر ، الكشف عن مساوئ الحكم الفرنسى فى الجزائر أمام الرأى العام ، من خلال الصحف والرسائل الشخصية .

أما النمط الثانى ، وهو الجهادى ، فهو الذى استمر سنوات طويلة لأن المشاعر الدينية هى التى كانت تغذيه وتدعمه ، واعتمد هذا النمط مبادئ : الجهاد ، الأرض ، الشرف ، الوطن وحمل المرابطون راية الجهاد فى سبيل الله خصوصًا بعد ما تشردت جموع المسلمين من سكان المدن الساحلية ، الذين فروا بدينهم وعائلاتهم إلى الداخل ، وقدم لهم شيخ المرابطين محى الدين الجزائرى والد عبد القادر الحماية والدعم .

وعندما حاولت فرنسا بسط نفوذها على الداخل لم يكن هناك من بُد لتحرك شيخ المرابطين لتنظيم المقاومة. والأطر السياسية للدولة بعد نجاح فرنسا فى احتلال العاصمة، فاتصل بملك فاس ليقوم بدوره بعد أن تعلن له القبائل الولاء ولكنه رفض بعد تحذير فرنسا له.

وقرر محى الدين تقديم ابنه عبد القادر قربانًا للجهاد ، خصوصًا بعدما أثبت بطولات نادرة فى المقاومة ، وحاولت القبائل إقناع محى الدين أن يكون ملكًا فرد عليهم : « تعرفون جميعًا أننى رجل عبادة وتقوى ، ويتطلب الحكم استخدام القوة والعنف وحتى سفك الدماء ، ولكن مادمت على أن أكون سلطانكم فإنى أقبل ، ولكن أتنازل عن ذلك لصالح ابنى عبد القادر » .[1]

وتم مبايعة عبد القادر ، أول من بايعه كان أبوه ولقبه بناصر الدين ، وعندما أزفت صلاة الظهر قام بالناس خطيبًا ، وشرح لهم الأخطار المحيطة بهم ، وما كاد ينهى حديثه

---

(١) بسام العسيلى : الأمير عبد القادر الجزائرى . سلسلة جهاد شعب الجزائر . دار النفائس . بيروت . الطبعة الثانية ١٩٨٦ ص ٣٠ .

حتى ارتفعت صيحات الجهاد ، وفى يوم ٢٢ نوفمبر وصل إلى وادى خصيبة الذى يبعد مسافة عشر دقائق عن « معسكر » كان فى انتظاره عشرة آلاف فارس لاستقباله واصطفوا على شكل هلال ، بحسب قبائلهم ، وقدمه أبوه إلى الشعب : « انظروا هذا السلطان الذى أعلنته النبوة ، هذا هو ابن الزهراء ، أطيعوه كما لو كنتم تطيعونى فليحفظ الله السلطان » فردد الناس : حياتنا وأملاكنا وكل ما عندنا له ، لن نطيع قانونًا غير قانون سلطاننا عبد القادر ، وأجاب عبد القادر : وأنا بدورى لن آخذ بقانون غير القرآن ، لن يكون مرشدى غير تعاليم القرآن والقرآن وحده ، فلو أن أخى الشقيق قد أحل دمه بمخالفة القرآن لمات ، وأثناء استعراض عبد القادر للقوات كان يقف ليردد على مسامع الجميع أهداف العهد الجديد : « الجهاد الجهاد لا حرية ولا استقلال إلا بالجهاد ، الجنة تحت ظلال السيوف ، هلموا جميعا إلى الجهاد » .[1]

ورفض عبد القادر استخدام لقب السلطان ، حتى يكسب صداقة سلطان مراكش واكتفى بلقب أمير المؤمنين ، وهو ألصق بمفهومه للحكم ، وبدأ يشكل جهاز الحكم وتكونت من رئيس وزراء ، ونائب رئيس ، ووزير خارجية ، ووزير خزانة المملكة ، ووزير الخزينة الخاصة ، ووزير الأوقاف ، ووزير الأعشار والزكاة ، وشكل مجلس شورى من أحد عشر عضوا يمثلون المناطق المختلفة ، وجعل على رأسهم قاضى قضاة الجزائر ، ثم أرسل الرسائل إلى المناطق التى لم يغتصبها الفرنسيون فمنهم من أعلن له الولاء ماعدا القليل ، الذين تم إقناع بعضهم وإخضاع الرافضين ، وبذلك استقرت قواعد الحكم على أسس متينة ، قوامها الدين الإسلامى وقواعده الفاضلة . ولم تمض أكثر من سنوات قليلة (فى سنة ١٨٣٧) حتى أصبحت الجزائر عبارة عن دولة اتحادية تضم ثمانى مقاطعات ، على رأس كل مقاطعة خليفة .[2]

وقام عبد القادر منذ لحظة مبايعته بتنظيم الجيش على أسس عصرية جدًا فى مجال التسليح والتنظيم ، أما من الناحية المعنوية فكان الإسلام وقيمه وأخلاقياته هو الأساس ، فكان يكتب على أكتاف (وأذرع) القوات عبارات إسلامية بدلاً عن الشارة العسكرية عند الأوربيين ، فمثلاً يكتب على الكم الأيمن « الصبر والمثابرة مفتاحا النصر » ، وعلى الكم الأيسر « لا إله إلا الله محمد رسول الله».. وعلى الكتف الأيمن للآغا لا شىء

(١) المصدر السابق ص ٣١ ، ص٣٢ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٥ ، ٣٦ ، ص٣٩ .

يفيد كالورع والشجاعة » وعلى الأيسر « لا شيء يضر كالجدل والعصيان » ، وكان جميع ضباط الجيش يحملون عبارات تحمل مثل هذه المضامين ولم يتجاوز أفراد الجيش الإسلامى فى عهد عبد القادر ١٦ ألف مقاتل بالإضافة إلى الاعتماد على مجاهدى القبائل الذين يبلغ عددهم أحيانا ١٥٠ ألف مجاهد .[١]

وتمكن عبد القادر من تسليح جيشه النظامى بالأسلحة الحديثة التى استولى عليها أثناء القتال أو بالشراء ، وأقام مصانع عسكرية لتصنيع الأسلحة بهدف الاعتماد على القدرة الذاتية ، فأنتج مصنع تلمسان المدافع ومصنع مليانه البنادق والبارود وكذلك مصنع تاقدامت ، ونجح عبد القادر فى استخراج المواد الخام من المناجم والشراء من الخارج بعض الاحتياجات أيضًا ، وبنى قاعدة عسكرية فى تاقدامت سنة ١٨٣٦ . كما نجح عبد القادر فى جعل الشعب الجزائرى شعبًا واحدًا ، ودعوتهم للمحافظة التامة على دينهم ، وبعث روح الوطنية فيهم ، وإيقاظ كل قدراتهم الكامنة ، لبناء مجتمع الحرب والسلم ، فعمل على تنظيم التعليم العام ونشره بين القبائل ، وقام بتطبيق الشريعة الإسلامية فى دولته ، وأصبحت المرأة تستطيع الخروج وحدها دون أن تخاف المهانة ، وحارب الدعارة ، ومنع الخمر والميسر والتدخين .[٢]

وبدأ الأمير عمله بمحاصرة الفرنسيين وتضيق الخناق عليهم ، ومنع التموين عنهم ، ولذلك استخدم سلاح الفتوى ، وأفتى بأن كل من ساعد الفرنسيين مرتد عن دينه ، وأطلق على القبائل الخاضعة للفرنسيين اسم المتنصرة .[٣]

وبدأ الأمير عبد القادر فى الاشتباك مع القوات الفرنسية وإزعاجها ونجح فى الاستيلاء على تلمسان وغيرها من المدن ،واستمرت المعارك بين الطرفين كر وفر ومعاهدات متبادلة منها معـاهدة دى ميشيل فى ٢٦ فبراير سنة ١٨٣٤ ، وفيها اعترف الفرنسيون بسيادة الأمير على غرب ووسط الجزائر ولم يمض العام الثانى على توقيع المعاهدة حتى نكثها الفرنسيون ، عندما أعلنوا الحرب على عبد القـادر والذى تمكن من هزيمتهم فى معركة المقطع (١٢ مايو ١٨٣٥) ، وترتب على هذه أن قررت باريس احتلال « معسكر » حتى

---

(١) المصدر السابق ص ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٥ : ص٥٩ .

(٣) د . نبيل أحمد بلامى : الاتجاه العربى والإسلامى ودوره فى تحرير الجزائر . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٠ ص ١٥ .

تجبر عبد القادر على التسليم ، واختارت لهذه المهمة قائدها كلوزيل « الذى توجه بقوة قوامها ١١ ألف جندى إلى مدينة « معسكر » عاصمة عبد القادر بهدف احتلالها ، وما إن دخلها الفرنسيون فى ٦ ديسمبر ١٨٣٥م حتى وجدوها مهجورة ، إذ سبقهم عبد القادر فى إخلائها ، ولكن الفرنسيين رحلوا عنها فى ١٩ ديسمبر إلى مستغانم ، وفسر ذلك الرحيل بأنه انسحاب ، وضاع تبعًا لذلك النجاح الذى صادفته الحملة ولم تمض بضعة أيام على دخول الفرنسيين « معسكر » حتى جاءت أنباء إنتصار عبد القادر على القوات الفرنسية فى « سيدى يعقوب » ، وشهد عام ١٨٣٦م هزيمة أخرى لكلوزيل وذلك عندما حاول التخلص من أحمد باى قسنطينة الذى كان مازال يقاوم الفرنسيين .[١] ولذلك قررت فرنسا العودة إلى أسلوب الخديعة من جديد ، فتكروا فى مهادنة الأمير عبد القادر بإبرام معادة « التافنه » معه حتى يتفرغوا لتصفية المقاومة التى يقودها باى قسنطينة ، وهاجموها عدة مرات كانت آخرها يوم ١٣ أكتوبر ١٨٣٧ حيث نجحت القوات الفرنسية فى احتلالها ، وبمجرد ذلك تعمدت فرنسا إثارة المشاكل بينها وبين عبد القادر ، فطلبت إعادة النظر فى معاهدة تافنه ، ولكن عبد القادر رفض ذلك .[٢]

ولما أيقن عبد القادر إخفاق مساعيه السلمية ، وتصميم الفرنسيين على خرق معاهدة « التافنه » جمع مجلس الشورى فى « تقدامت » فى شهر يوليو ١٨٣٩م وطرح عليه محاولات فرنسا لخرق المعاهدة ، وكانت النتيجة أن بدأ عبد القادر فى مهاجمة الفرنسيين فتم إبادة الأفواج الأولى من المستوطنين الذين استقروا فى سهل « المتيجة » واستسلام بعض الحاميات الفرنسية فى المناطق الداخلية ، وأسفر هجوم عبد القادر عن زحزحة الفرنسيين عن مواقعهم العسكرية ، وانحسار نفوذهم عن المنطقة الداخلية وتركزه فى المنطقة الساحلية ، كما أخليت مدينة الجزائر من السكان الأوربيين ، ولم يتمكن « فالى » من الرد على هجوم عبد القادر إلا بعد وصول المدد من فرنسا والذى كان حوالى ١٢ ألف جندى ، وأصبح عدد القوات الفرنسية ٦٠ ألف جندى[٣] ولم ينجح « فالى » فى هزيمة عبد القادر ، مما أدى إلى عزله وتعيين الجنرال بيجو بدلاً منه فى منصب الحاكم العام فى الثانى والعشرين من فبراير سنة ١٨٤١م .

---

(١) المصدر السابق ص ١٥ ، ص١٦ .

(٢) المصدر السابق ص ١٦ ، ص١٧ .

(٣) دكتور جلال يحى : السياسة الفرنسية فى الجزائر من ١٨٣٠ إلى ١٩٥٩ ص ١٦١ .

وقررت فرنسا أن تنهى المقاومة بأى شكل كان فوضعت تحت تصرفه جيشًا ١٠٨ ألف جندى فى سنة ١٨٤٧ ، أى ما يوازى ثلث الجيش الفرنسى آنذاك ، وبدأ بيجو استخدام أسلوب الإبادة والأرض المحروقة دون مراعاة لأى اعتبارات إنسانية ، وأدى ذلك إلى سقوط المدن الجزائرية تباعا وكان على عبد القادر أن يخوض صراعًا مريرًا على ثلاث جبهات : الجبهة الداخلية المتداعية تحت ضربات الفرنسيين ، وعلى جبهة الصراع ضد الفرنسيين ، وعلى جبهة المغرب ، وكان هذا الصراع يتطلب إمكانات ضخمة ، فى حين انقطعت كل الموارد بعد أن نجحت فرنسا فى عزل الجزائر من جناحيها تونس والمغرب .[1]

وكانت قمة المأساة أن عبد القادر وجد نفسه محاصرًا بالاعداء من الفرنسيين أعدائه التقليديين ، وسلطان مراكش الذى هاجمه بجيوشه ، وهزمه فى ١٥ ديسمبر ١٨٤٧م ولم يجد بدًا من التسليم .[2]

الاستسلام :

وفى شهر ديسمبر ١٨٤٧ ، وقف عبد القادر مع قواته المتبقية معه (٥ آلاف) فى (أقدين) دائرة معسكره على الضفة اليسرى لنهر (ملوية) وأعاد تقدير موقفه وقال : « هل تذكرون القسم الذى أقسمتموه قبل ثمانية أعوام فى المدية عند استئناف الحرب .. إننى دائمًا كنت أعتبر ذلك القسم ملزم لى نحوكم ، كما هو ملزم لكم تجاهى ، إن هذا الشعور وحده هو الذى جعلنى أتابع حمل راية الجهاد فى سبيل الله حتى اليوم ، فإذا كنتم تعتقدون أنه مازال بوسعى أن أقوم الآن بأى شىء فأخبرونى ، وإن كنتم لا تعتقدون ذلك فإنى أسألكم أن تعفونى من القسم الذى التزمت به تجاهكم ، وأجابه الجميع بصوت واحد ، إننا جميعًا نشهد أمام الله أنكم فعلتم كل ما فى وسعكم لإعلان كلمته ، وسيجزيكم الله بعدله يوم القيامة ، فواصل قوله : « أمامنا ثلاثة احتمالات ، إما العودة إلى الدائرة حتى نكون مستعدين لمواجهة أى عقبة ، وإما محاولة إيجاد طريق إلى الصحراء ، وفى هذه الحالة لا تستطيع النساء والأطفال والجرحى أن يتبعونا ، وسيسقطون لا محالة

---

(١) بسام العسلى ، مصدر سبق ذكره ص ١٥٠ .

(٢) د . نبيل أحمد بلاسى . مصدر سبق ذكره ص ٢٩ .

فى أيدى العدو ، وإما الاستسلام . فأجابوه « ليهلك النساء والأطفال ، أهلنا وأهلك ، مادمت سالما وقادرًا على متابعة الجهاد فى سبيل الله ، إنك قائدنا وأميرنا ، فحارب واستسلم كما تشاء ، إننا سائرون وراءك إلى حيث تقودنا » وبعد نقاش أخرج الأمير قطعة من الورق ووضع عليها خاتمة ، وترك للفارسين المكلفين بنقل الرسالة إلى القائد الفرنسى كتابة الشروط لأن المطر كان غزيرًا يمنعه من الكتابة ، واستقبل الجنرال « لامورسيير » فى ليل ٢١ ديسمبر ١٨٤٧ فارسين أبلغاه رغبة الأمير فى الاستسلام ، فوافق على الفور غير أنه لم يكن قادرًا على الكتابة ايضًا للسبب ذاته « الأمطار » فأعطى سيفه ، وخاتمه إلى المبعوثين لتقديمهما إلى عبد القادر علامة قبول شروطه ، فى يوم ٢٣ ديسمبر ١٨٤٧ وصل الأمير إلى زاوية المرابط « سيدى إبراهيم » واستقبله العقيد « مونتبان » على رأس قوة من ٥٠٠ فارس ، وأدى له المراسم كرئيس دولة ، وبعد استعراض حرس الشرف ، طلب الأمير الصلاة فى الزاوية ، واستجاب له القائد الفرنسى لطلبه وبعد ساعة قضاها الأمير فى الصلاة خرج وتابع رحلته ركب الأمير وعائلته وأتباعه (ومجموعهم ثمان وثمانون شخصًا) السفينة « اسمودس » يوم ٢٥ ديسمبر ١٨٤٧ واتجهت إلى طولون ، إلا أن الفرنسيين نقدوا عهدهم وقاموا باعتقاله إلا أنه تم الإفراج عنه فيما بعد ، وتوجه إلى دمشق ليقضى بقية حياته .[1]

وهكذا نرى أن جهاد عبد القادر الجزائرى اعتمد على الإسلام تمامًا سواء فى القتال أو المعاهدات أو الاستسلام ، وهو الميراث الذى توارثه المجاهدون الجزائريون فيما بعد ، حيث كانت تجربة عبد القادر وشخصيته ، هى محور كل التحركات والثورات بعد ذلك كما سترى فى الفصول المقبلة ، والمنطلق التعبوى الذى تستخدمه الحركة الإسلامية الجزائرية حاليا فى تعبئة الجماهير لإعادة سيرة عبد القادر الذى يراه الشعب نموذجًا ومثلاً يحتذى .

كما يتضح أن عبد القادر كان مسلمًا واعيًا بظروف زمانه فاستخدم الأسلحة الحديثة ، وأقام المصانع العسكرية حتى لا يعتمد على الخارج ، وتعاهد مع أعدائه عندما جنحوا للسلم ، وراعى عدم التنازل عن الحقوق الإسلامية ، وهذا يتضح فى معاهدته مع دوميشال

---

(١) بسام العسلى ، مصدر سبق ذكره ص ١٥٠ – ص ١٥٣ .

فى ٢٦ فبراير ١٨٣٤ ، فالمادة الثانية نصت على « ستكون عادات المسلمين وديانتهم دائمًا موضع الاحترام والحماية » .[1]

أما معاهدة « تافنه » مع بيجو فى ٢٠ مايو ١٨٣٧ وهى التى نصت على تقسيم المناطق وإبقاء الوضع على ما هو عليه نصت المادة الخامسة « على أن يتمتع العرب المقيمون فى المنطقة الفرنسية بحريتهم الدينية ، ويمكنهم إقامة المساجد ، وممارسة شعائرهم الدينية فى كل خصوصياتها ، تحت سلطة قضائهم ورجال دينهم »[2] فالأرض كان يتفارض عليها لأن الظروف تحكمه أما الدين فلم يساوم عليه مطلقًا .

كما يتضح البعد الإسلامى فى جهاده ضد الفرنسيين فى الرسالة التى بعث بها إلى ملك فرنسا لويس فيليب سنة ١٨٣٩ قال فيها : « منذ ظهور الإسلام كان المسلمون والمسيحيون فى حرب ، وقد كان هذا يعتبر واجبًا مقدسًا لدى الطرفين ، ولكن المسيحيين ، بعد أن نسوا دينهم ومبادئه ، أصبحوا ينظرون إلى الحرب مجرد وسيلة للتوسع الدنيوى ، أما بالنسبة للمسلمين الحقيقيين فهم على النقيض من ذلك ، ينظرون إلى الحرب ضد المسيحيين على أنها مجرد التزام دينى ، وهل هناك أهم من هذا الالتزام ، حينما جاء المسيحيون للاعتداء على أرض إسلامية ، أوبناء على هذا المبدأ فقد حدت عن القواعد التى نص عليها كتابنا المقدس ، عندما وقعت معكم أنتم ملك المسيحين منذ سنتين ، معاهدة سلام ، وبالأخص عندما بذلت كل جهدى لتدعيم هذا السلام بكل الوسائل التى كانت لدى . إنكم تعلمون الواجبات التى يفرضها القرآن الكريم على كل حاكم مسلم ، إذن ، الواجب عليكم شكرى على ماقمت به شخصيا لتخفيف صرامة أحكامه نحوكم ، إنك تطلب منى تضحية تتنافى ودينى ، وهى الخضوع ، وأراك أعدل من أن تكلفنى مثل هذا ، إنك تطلب منى أن أتخلى عن قبائل – وهم إخوانى فى الدين –تلقيت منهم الوفاء والطاعة ، وجاءوا بأنفسهم راضين يدفعون إلى ما فرضه القرآن من جزية ، وتضرعوا إلى ومازالوا بأن أكون عليهم أميرًا ، وقد جلت بنفسى عبر مناطقهم والتى هى خارجة عن الحدود التى

---

(١) المصدر السابق ص ١٦٥ .

(٢) المصدر السابق ص ١٦٧ .

خصصتها المعاهدة لفرنسا – وتريدون منى اليوم أن أطلب من هذا القبائل أن تخضع لهيمنة المسيحيين ، أبدًا ، وإذا كان الفرنسيون أصدقائى ، فليس لهم أن يطلبوا منى شيئًا يحط من قيمتى لدى شعبى » .[1]

فمسلك عبد القادر الجزائرى السياسى والعسكرى كان التعبير العلمى عن فهمه العميق للإسلام ، وهذا لم يكن بالمستغرب عن الذى قال : « إننى عبد القادر بن محى الدين بن مصطفى بن محمد بن المختار بن عبد القادر بن أحمد بن عبد القوى بن يوسف ابن أحمد بن شعبان بن محمد إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن فاطمة بنت رسول الله (ﷺ) زوجة على بن أبى طالب ابن عم الرسول » .[2] .

وكان أول من هاجر من المدينة هو إدريس الأكبر الذى أصبح فيما بعد سلطانًا على المغرب ، وهو الذى بنى فاس ، وبعد أن كثر نسله ، توزعت ذريته ، وقدمت عائلته لتستقر فى أغريس قريبًا من معسكر وأجداده مشهورون فى الكتب والتاريخ بعلمهم واحترامهم وطاعتهم لله ، فهو من بيت علم وتقوى ساعده على فهم دينه بشكل يناسب زمانه وقال أيضا : « لو فرشت لى مسالك فرنسا وسهولها بالديباج والذهب ووضعت فى كفة وحريتى فى كفة لاخترت حريتى ، وإننى لا أطلب عفوًا ولا إحسانا ،أطلب فقط احترام العهود التى قدمت لى » .

(١) المصدر السابق ص ١٧١ ، ص ١٧٢ .

(٢) الأمير عبد القادر : سلسلة الفن والثقافة . وزارة الإعلام والثقافة . الجزائر ١٩٧٤ ص ١٠

استمرار الجهاد بعد عبد القادر

وبذرة الجهاد التى زرعها عبد القادر الجزائرى لم تنته باستسلامه فجيوب المقاومة الإسلامية استمرت فى الواحات ، وبلاد القبائل ، فقد سجلت واحة الزعاطشة التى كان يحكمها بوزيان أحد مشايخ الطرق الصوفية بطولات نادرة – عندما رفضوا الرضوخ لأوامر السلطة الفرنسية ، التى حاصرت الواحة أربعة أشهر دافع سكانها عن واحتهم دفاعًا مريرًا رغم احتراق منازلهم ، ولكن القوات الفرنسية تمكنت من اقتحامها .

أما على جبهة القبائل فأعدت فرنسا حملة من ٢٧ ألف جندى وذلك سنة ١٨٥٦ وفى ٢٥ مايو ١٨٥٧ سلمت جماعة « آيت راتن » وكانت من أقوى الجماعات البربرية فى جرجرة، كما استسلمت لالا فاطمة زعيمة قبيلة اليلتن فى ١١ يوليو ١٨٥٧ بعد معارك دامية .

ولكن فى سنة ١٨٧١ إندلعت ثورة إسلامية أخرى لم يكن يتوقعها أحد وأثبتت أن البذر الذى بذره عبد القادر ما زال لديه القدرة على النمو والاخضرار . وجاء الأمير محى الدين بن عبد القادر من الشرق وأخذ يدعو للجهاد ، وأخذت الثورة فى الانتشار وشارك فيها رجال الطرق الصوفية تحت راية الجهاد . وفى نفس تلك الفترة قام الشيخ محمد بن الحداد شيخ الطريقة الرحمانية فى منطقة القبائل بإعلان الجهاد ونادى الجماهير : « إن يوم الخلاص قد حان » ، وانتشرت الدعوة فى المساجد والأماكن العامة والأسواق والمقاهى ، وشاركت القبائل بمائة وخمسين ألف رجل – بزعامة الحاج المقرانى الذى كان يتوقع مددًا من تونس أو من الدولة العثمانية أو من الأمير عبد القادر ، ولكن ذلك لم يحدث . ورغم نجاح تلك الثورة فى البداية إلا أنها لم تدم طويلاً لأن بسمارك مستشار ألمانيا ، رأى أن يخفف الوطأة على فرنسا ، فأطلق سراح عدد كبير من الأسرى لقمع الثورة الجزائرية ، واستشهد المقرانى فى ٢ مايو ١٨٧١ فى معركة وادى سفلة – وحسمت المدفعية الفرنسية نتيجة الثورة فى النهاية .[1]

---

(١) د . نبيل أحمد بلاسى . مصدر سبق ذكره ص ٢١ .

ولم تنته هذه الثورة إلا فى يناير ١٨٧٢ عندما حاصر الفرنسيون باقى الثوار فى الصحراء وتمكنوا من أسر أبى مزراق وآخرين بعد أن سقطوا من الجوع والعطش فى ٢ يناير ١٨٧٢م وإذا كانت فرنسا قد نجحت فى ضرب تلك الثورة بسلاح الحصار إلا أن هذه الثورة أذكت نار الوطنية العربية والتضامن الإسلامى بين الجزائريين ضد الفرنسيين ، وأثبتت أن خميرة الثورة لن تنته من الأرض الجزائرية الإسلامية ورغم إخماد تلك الثورة فإن الانتفاضات استمرت ضد الاحتلال الفرنسى ، ومن أهمها : ثورة أولاد سيدى الشيخ فى جنوب الجزائر سنة١٨٨١ ، بزعامة الشيخ بوعمامة الذى بدأ ثورته فى ١٩ يناير ١٨٨١ ، بمهاجمة المراكز الفرنسية ، وتمكنه من هزيمة وقتل القائد الفرنسى « وينبرينر » وامتدت الثورة إلى وهران ،ومنطقة الصحراء والهقار ، واستمرت ثلاثة وعشرين عامًا (١٨٨١ –١٩٠٤) إلى أن تمكن الفرنسيون من تصفيتها من خلال الحيلولة دون تسلل بوعمامة إلى المناطق السكانية فى الشمال ، وبتفوق الأسلحة الفرنسية وإغلاق الحدود المغربية فى وجه بوعمامة الذى أدت شيخوخته إلى تصفية هذه الثورة .[1] .

وإذا كانت المقاومة المسلحة قد تراجعت بعد ١٩٠٤ إلا أن نوعًا آخر من المقاومة الإسلامية قد اندلع للمحافظة على الشخصية الجزائرية المسلمة ضد محاولة التنصير التى قامت بها فرنسا للانتقام من المسلمين الجزائريين وهو ما سنراه فى الفصل الثانى ، حيث كانت المعركة على جبهة الإنسان الجزائرى نفسه بعد أن حسمت فرنسا الحرب على الأرض بدأت حربها البشعة الثانية على المواطن الجزائرى نفسه فى محاولة منها لاحتلال وجدانه وعقيدته وعقله وكانت تلك الحرب هى الأشرس ولولا الدور الإسلامى فى المقاومة لنجحت فرنسا فى إحتلال النفسية الجزائرية .

(١) دكتور أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ١٩٠٠ – ١٩٣٠ ، بيروت ، الآداب ١٩٥٩ ص ٦٨